عبط ... عبط ... !

بقلم محمود تيمور

أستمعي لي يا أمي ، ولا تقاطعيني .

أصغي الى ابنك ، وهو يروي لك طرفا من حياته .

لعلك تسمعين في عجب ، وتقولين

وهل أجهل أنا من تاريخ حياتك شيئا قل او كثر ؟

نعم . انت تجهلين بعض جوانب من حياتي ، ما في ذلك ريب ... وربما كانت هذه الجوانب التي لا تعلمينها من امري على مسعرها هي اعظم جوانب حياتي خطرا ، وابعدها اثرا . وربما كنت انت على علم بظواهرها ، ولكنك لا تعرفين من تفاصيلها ما يصور حقيقتها الكاملة .

أنت تحبينني معي ، وما اذكر أنك فارقتني او فارقتك يوما او ليلة ...

كانت حياتنا معا موصولة الحلقات ، بيد اني أؤكد لك على الرغم من ذلك انك لم تري غير هذه النفس البشرية .. نفسي انا ابنك الذي هو جزء منك !

دعيني اذن أكشف لك مكنون صدري ، واطالعك بسر من حياتي دون .

اسمعي الي يا امي ولا تقاطعيني .

لا تعترضي على شيء مما انا قائلة .

الرمي الصمت ... صمت الوعي والانتباه .

ما اعشبه الساعة لك هائل فاجع ..

انت فقيرة ، وانا مثلك فقير .

لم يكن لي من التعليم نصيب ، ولكني استطعت ان اكتسب قدرا قليلا من الثقافة ، والم بضروب شتى من المعرفة ، وانطوى الى ظواهر الحياة حوالي .

لقد استهوتني أحاديث المتعلمين ، فانصت لها كل الانصات ، والتقطت الكثير مما يجادلون فيه ، وحفظته عن فهم ودراية .

كان اطيب وقت الى هو الوقت الذي اقضيه في كتب من زمرة المتعلمين في المشارب والأندية ، وانا قابع في ركني المنزوي ، غارق في صمتي المديد .

فهمت مما يخوضون فيه من الحديث امور الدنيا ، وتصاريف الحياة ، وشواغل الناس ، دون ان يحس اولئك المتعلمون اني لقيت منهم شيئا .

كنت اقضي اطول وقتي لا انيس الا في الندرة ، فالكلمة لا تبرح مني الا عن اضطرار ، وشعاري الدائم هو الصمت والهدوء واجتناب الاختلاط بخلق الله فكان في ذلك ما دعاهم ان يلقبوني : العبط !

عبط ... أو ماكبر حبك ... وحقك يا امي لا ادري اي الرجلين انا ، ولكن جميع الناس ، وانت اولهم ، يطلقون علي لقب العبط ! .

أما انا في نظرها « هي » فكنت العبط الأكبر ، ولذلك وقع اختيارها علي .

صه يا امي ...

قلت لك اصغي الي ، لا تقاطعيني ..

ارهفي سمعك ، لكي تتلقى من ابنك العبيط البأ الهائل الفاجع الذي يزلزل كيانك .

... بل سأصمت انا ، مرهفا سمعي ... أقادمون هم على الساعة ؟

كأني بهمس تترامى أصداؤه الى اذني ...

كأني بخفق اقدام تتدانى ...

لا ، لا شيء من ذلك ، احسب ان الوقت لم يحن . نور الشمس الوضاح لم يكشف الستر بعد .

لقد احتفلوا بليلة الرفاف حتى الفجر ، وهم الآن مستسلمون للكرى ...

على أن اتم حديثي معك ، أو بالأحرى اعترافي لك ، قبل أن يقدموا ليصطادوني وانهم لا شك فاعلون .

أميل الى اعتقاد اني عبيط ... نعم ، انا عبيط ، والا لما استطاعت «هي» ان توقعني في حبائلها على هذا النحو المهين .

انت تعلمين يا امي اني وسيم الطلعة ، فعيناك انتقلت الى هذه الوسامة ... وان شبابي ليتفجر نشاطا وحيوية ، واني مهذب الطبع حدوم ، وفوق ذلك انحلى بفضيلة الصمت ... وهذا ما قربني اليها وقربها الي ... هذا ما اغراها بأن تختارني دون سواي .

انها ربة نعمتي ، وربة نعمتك انت ايضا يا أمي ... لقد منحتنا هذا « الحاصل » الذي نبيت فيه ، ونأوي اليه ، وسكنت هي في شقتها الفاخرة فوقه ، وكذلك منحتنا الكساء والغذاء ، واسبغت علينا عطايا وهبات ، وان كنا نحن ايضا لم نبخل عليها وعلى زوجها بكل ما نستطيع من خدمات .

كنت اتهيأ واتهيب زوجها معها ، واعدهما من صنف آخر ارقى شأنا من الصنف الذي انتسب اليه ، وكان الزوج ذا حزم وارادة ، اذا مثلت امامه احس الصناع ...

لم يكن اصلب مني عودا ولا اشد منة ، فلو قدر له ان ينازلني في مصاولة حرة لما نبت اوراقي دقائق معدودات ، ولكن ذلك لم يكن يعصمني من ان ارهبه غاية الرهبة ، وان ارتجف لمرآه ...

فم كل هذا الذي استشعره نحوه ؟ الأني عبد ؟ .

سمعت يوما في المشرب رجلا يصفني بقوله صدقوني ان هذا الشاب ليس بالعبد ، بل هو هادىء خجول طيب الى ابعد حدود الطيبة !

لست في الحق طيب القلب الى هذا المدى ، فان بي نزعة الى الشر ، نزعة ممتدة الى الأعماق السحيقة من نفسي ، وبي حسي صعبة مطوية ، صميمة على ذلك الروح ، برغم ما القاه من عطفه واشفاقه ، فانا أكرهه ... امقته ... ولما وافته منيته لم تذرف عيني عليه دمعة ، بل شعرت بفرحة باطنة ، واستبان لي اني كنت اتمنى موته ... لماذا ؟ ... لا أدري !

وكانت « هي » مدة حدادها على زوجها تزداد في لونها الأسود حسنا ووسامة ، وكلما حاولت ان ارفع اليها بصري اتملى مفاتنها ارتدت نظراتي حسيرة مقهورة .

ومضت الأيام سهلة رخية ...

وانقضت مدة الحداد ، وعاد الاشراق الى محياها ، ورنت ضحكاتها عذبة ناعمة ، وأخذت بها ... بها « هي » تطيل دقائقها معي ، وتفيض في حديثها الي ، وهي تتوسمني ..

واشتد اهتمامها بي ، فكانت تسقيني في الشقة وقتا ليس بالقصير ، لأؤدي لها بعض الخدمات الخاصة ، وكانت تقول لي انها ضاقت ذرعا بخادمتها التي تكرر منها الاهمال والعناد .

واجتهدت في خدمتها ، باذلا كل وسعي ، وانا الاقي رضاها على بغطة وارتياح .

وعلى مر الأيام وجدتني أقوم لها باكثر مما كانت خادمتها تقوم به ... طهو وغسل وكوى ، وأؤدي غير ذلك من أعمال منزلية شتى .

كنت نشيطا احس الحياة بكل ما تحويه من بهجة واسعاد .

ومثلت هى أمامى مرة لتوسمنى ، لم قالت سلطفة : انت شاب مجد فى عملك ... ووسيم ايضا !

وابتسمت لى ابتسامة متالقة ، وتابعت حديثها تقول : صحيح عبيط . ومالة ؟ ... احسن عبط ! .

ول لحظة دامتنى بقرصة فى خدى ، فكانت اسعد لحظة من عمرى ...

ول عد اليها تهدى الى كوة من ملابس زوجها الراحل ، وحقا كانت حلة فاخرة ، فلما ارتديتها وبدوت بها أمامها ، صاحت متهللة الوجه : يا لها من اناقة . لقد زدت فى نظرى وسامة وجمة ! .

وبدات تتدعنى الى حجرتها الخاصة ، لاساعدها وهى تبدل ملابسها ، وطفقت تريني ما حلى من مقاتها ، وهى تشير باصبعها تحوى ، وترنو الى ، وتردد على سمعى فى صوت منغم : لا ترفع عينك ... الزم الأدب يا ولد !

فكنت اهمهم ، وانا احلس اليهسا النظر على الرغم منى ، وكل جارحة من جوارحى تلتهب .

ويوما ، وهى فى مثل هذه الحال معى ، وانا واقف منهسا كالصنم ، ولسانى معقد ، وجدتنى انقض عليها ، دون وعى ...

كانما كنت فى حلم . اعتصر بين يدى ليمونة حلوة ، وارتشف رحيقهسا ارتشاف الظامىء للماء العذب ، بل

اني على الاصح اكلتها اكلا ، واحسست بانى لم ابق منها شيئا تراعب فيهما من بعد !

وتواصلت الايام ، وانا استمرىء ذلك المتاع العظيم ...

وكثيرا ما كانت تقول لى فى حنان رائع : أنت طيب القلب ... طيب القلب جدا .

ولكى هذا الطيب القلب يا امى حرؤ على أن يذبح دجاجة سمينة رائعة ، وحرؤ كذلك على ان يذبح معها ديكا له خطره فى عالم الديكة !

صه يا امى ...

يخيل الى أن لحظا يعلو فى الخارج .

أصغى معى فى سكون تام .

عجبا ... انها أصوات الجنادب التى تساكنا فى هذا « الحاصل » الضيق .

اطمئنى يا امى ولا تخافى .

أتراك خفت فعلا عندما عدت اليك فى مطلع الفجر ، بعد ان تمت بأداء مهمتى ؟

هل رأيت السكين الكبيرة ؟ انها هنالك تحت اللحاف راقدة ، سكين المطبخ العظيمة ، لقد عنيت أنا بشحذها اياما حتى غدت أرهف من حد السيف فعلت ذلك حتى لا يكون معها ألم ، ولا تشويه للجسد ..

ولم الأمر فى لحظات قصار .. فى سهولة ويسر ... وكثيرا ما يعلو المرء فى حساب عظائم الأمور !

شد ما انصفت هذا الروح الحديد انصفته بعضا لا تستطيعين أن تتصوريه ، ولم أكن قد رأيته الا خطفا فى تلك الليلة البارحة ... ليلة الرفاف !

اذا استطعت يا امى أن تحشدى حقد الحاقدين فى هذا الكون ، فاعلمى انه اذا وزن بالحقد الذى حملته له فانه لتضاءل ولا يعدو شيئا !

لم يكن أمامى غير هذه السل ، فسلكتها وارحت نفسى .

لماذا اخترته يا حبيبتى زوجا ثانيا لك ؟ ألم أكن أنا اكثر من زوج ... كنت طوع يمينك مثل كلب وفى ، ولكن كان على ان تعرفى أن هذا الكلب عقور له انياب كانياب الذئاب !

لماذا نبذتنى ، واتخذته عوضا عنى ! الأنى غبط وهو الذكى الألمعى ؟ الأنى من سكان « الحواصل » وهو من سكان الدور ؟

لقد عشت معك وقتا بنسانى احب متعة موصولة ، وكنت راضية بى كل الرضا ، فما الذى غير قلبك على ، وأنا الحريص على اسعادك ، بل انى لراض ان أبذل حياتى فداء لحياتك !

القيتك تقضين عليك نعتة ، لاتسع المكان لغريمى ، وانت تغمرينى بالمنح والهدايا ، حتى تهوى على نفسى ذول

الأمر الواقع المرير ، وأخيرا أصدرت أمرك الى ان الرم مكانى فى « الحاصل » مع أمى ، كعهدى من قبل ...

صه يا أمى ، ودهيس أنصت .

انهم قادمون ...

ذلك حقق اقدامهم على الأرض الصلبة ، تتجه نحو « الحاصل » ...

ها هم أولاء يسارعون الى ..

أثمة سلاسل معهم تصلصل ؟

أحس من بقين انهم اللحظة مقبلون .

لا يكذب حدسى هذه المرة .

فليأتوا ، كل شىء معد ، كل شىء فى متناول ايديهم ، السكين المحصة بالدم راقدة تحت اللحاف ، وأنت يا أمى على وسادتك عائصة فى ذهول وخبال ..

الضوضاء تعلو ... اكبر الظن أن الحى كله قد اجتمع ليشهد الضبط وهو يستعمل صيوفه العظام ...

سأمهلهم يا أمى للقائهم ... لا يصدر منك صوت .. ابقى عائصة فى ذهولك وخبالك ... وداعا ... وداعا ليس بعده لقاء !